

المطلب الثامن

طلب النور

obeikandi.com

المطلب الثامن طلب النور

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (سورة الحديد: ١٣-١٤).

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ وهذا إخبار من الله تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة والزلازل العظيمة والأمور الفظيعة وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر.

قال أبو امامة الباهلي: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا - ويشير إلى القبر - بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى موطن آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (سورة النور: ٤٠).

فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ نَظَرُونَا نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (سورة النساء: ١٤٢)، فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ فما يزال المنافق مغترّاً حتى يقسم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن.

﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَهَا بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ قال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار.

﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي: الجنة وما فيها.

﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي: النار.

والمراد بذلك سور يضرب يوم القيامة يحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة.

﴿ يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ونقف معكم بعرفات ونحضر معكم الغزوات ونؤدي معكم سائر الواجبات؟.

﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى كتتم معنا.

﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ قال بعض السلف: أي فتتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات وتربصتم أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت.

﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

﴿وَعَرَّتْكُمْ الْأَمَانِي﴾ أي: قلتُم سيغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا.

﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما زلتُم في هذا حتى جاءكم الموت.

﴿وَعَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: الشيطان.

قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا أي: بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً^(١).

يقول سيد قطب: ... إن المنافقين والمنافقات في حيرة وضلال، وفي مهانة وإهمال، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات: ﴿يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾

فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف ولكن أتى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وعاشوا حياتهم كلها في الظلام؟ إن صوتاً مجهلاً يناديهم: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ ويبدو أنه صوت للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا إلى ما كنتم تعملون. ارجعوا فالنور يلتمس من هناك من العمل في الدنيا. ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور!

(١) «تفسير ابن كثير» (ج٤، ص: ٣٠٨-٣٠٩).

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات، فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكن لا يمنع الصوت فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ فما بالناس نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد؟ وقد بعثنا معكم في صعيد واحد؟

﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ كان الامر كذلك ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ... فصرفتموها عن الهدى.

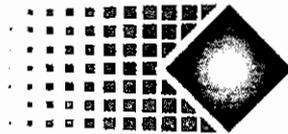
﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحسنة الحاسمة.

﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ فلم يكن لكم من اليقين ما تعزموا به العزيمة الاخيرة.

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها.

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ وانتهى الامر.

﴿ وَغَرَّتْكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم^(١).



من يعمل سوءاً يجزيه

obeikandi.com

من يعمل سوءاً يجزبه

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (سورة النساء: ١٢٣).

قال ابن كثير: قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي قبله فأنزل الله ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (سورة النساء: ١٢٥). فأفلق الله - أظهر - حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قالت اليهود والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان منا. وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾».

وقال الجمهور: لفظ الآية عام، والمؤمن والكافر يجازى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فنكبات الدنيا، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فضي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها»^(٢).

(١) «تفسير ابن كثير» (ج-٢، ص: ٥٦٦).

(٢) «تفسير القرطبي» (ج-٣، ص: ١٩٦٦).

قال البقاعي: ولما كانت أمانيتهم أنهم لا يجازون بأعمالهم الخبيثة أنتج ذلك لا محالة قوله: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ أي: بالمصائب والأمراض وغيرها عاجلاً إن أريد به الخير وأجلاً إن أريد به الشر، ولما أبدى جزاء المسيء تحذيراً أولاه أجر المحسن تبشيراً فقال: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

يا معرضاً عن الهدى لا يسعى في طلبه، يا مشغولاً بلهوه مفتوناً بلعبه، يا من قد صاح به الموت عند أخذ صاحبه: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ جزُ على قبر الصديق وتلمح آثار الرفيق يخبرك عن حسنه الأنيق أنه استلب بكف التمزيق هذا لحده وأنت غداً به... ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

كم نُهي عن الخطايا وما انتهى، وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها؟! هذا ركنه القويم قد وهى وها أنت في سلبه ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

أين من عتا وظلم ولقى الناس منه الألم؟! اقتطعه الردى اقتطاع الجلم فما نفعه ما جمع لا والله لم يدفع عنه عزُّ منصبه ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

بات في لحده أسيراً لا يملك من الدنيا نقيراً، بل عاد بوزر ذنبه عقيراً، وأصبح من ماله فقيراً على عز نسبه وكثرة نشبه ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

اللذات تفنى عن قليل وتمرُّ، وآخر الهوى الخلو مر، وليس في الدنيا شيء يسرُّ إلا يغمر ويضر، ثم يخلو ذو الذلل بمكتسبه ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

الكتاب يحوي حتى النظرة، والحساب يأتي على الذرة، وخاتمة كأس اللذات مرة، والأمر جلي للفهوم ما يشتهه ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

تقوم في حشرك ذليلاً، وتبكي على الذنوب طويلاً، وتحمل على ظهرك وزراً ثقيلاً، والويل للعاصي من قبيح منقلبه: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

يجمع الناس كلهم في صعيد، وينقسمون إلى شقي وسعيد، فقوم قد حل بهم الوعيد، وقوم قيامتهم نزهة وعيد، وكل عامل يغترف من مشربه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

إنما يقع الجزاء على أعمالك، وإنما تلقى غداً غبَّ أفعالك، وقد قصدنا إصلاح حالك فإن كنت متيقظاً فذلك وإن كنت نائماً فانتبه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(١).

يقول سيد قطب: . . . ثم يعقب السياق بقاعدة الثواب الكبرى في العمل والجزاء إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأمانى، إنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف وقانون لا يحايى، قانون تستوي أمامه الأمم، فليس أحد يمت إلى الله - سبحانه - بنسب ولا صهر، وليس أحد تخرق له القاعدة وتخالف من أجله السنة ويعطل لحسابه القانون، إن صاحب السوء مجزي بالسوء، وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة، ولا محاباة في هذه ولا عمارقة^(٢).

(١) «الجزاء من جنس العمل» (ج١، ص: ٦٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (ج٢، ص: ٧٦٢).

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(سورة الأنعام: ١٢٩).

قال ابن كثير: والمعنى: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفع بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض ونتقم ببعضهم من بعض جزاء على ظلمهم وبغيهم^(١).

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور: هو من قبيل قوله: ﴿ نُؤَيِّ مَا تَوَلَّى ﴾ (سورة النساء: ١١٥). أي نلزمه ما ألزمه نفسه.

قال المفسرون: يجوز أن يكون معنى: ﴿ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ نجعل بعضهم ولاية على بعض أي: نسلط بعضهم على بعض، والمعنى أنه جعل الجن وهم ظالمون مسلطين على المشركين والمشركون ظالمون، فكل يظلم بمقدار سلطانه، والمراد بالظالمين في الآية المشركون.

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم، فتدل على أن الله سلط على الظالم من يظلمه وقد تأولها على ذلك عبد الله بن الزبير أيام دعوته بمكة، فإنه لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق بعد أن خرج عمرو عليه، صعد المنبر فقال: ألا إن ابن الزرقاء - يعني عبد الملك بن مروان، لأنه كان أزرق العينين - قد قتل لطيم الشيطان ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(١) «تفسير ابن كثير» (ج٢، ص: ١٨٠).

ومن أجل ذلك قيل: إن لم يقلع الظالم عن ظلمه سلط عليه ظالم آخر - وإن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم، وقد قيل: وما ظالم إلا سيلى بظالم^(١).

قال البقاعي: ولَّى الكفرة من ظالمي الجن ظالمي الإنس وسلطهم عليهم، هذا عمله مع كل ظالم من أي قبيل بين الأشكال والأوصاف الباطنة والخصال، ويسلط بعضهم على بعض في الضلال والإضلال والأوجاع والأنكال بما كانوا بجبلاتهم يكسبون، بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبعناهم عليها، يجتمعون وينقاد بعضهم لبعض حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها فيظلم بعضهم بعضاً ويهلك بعضهم بعضاً، يولى بعض الظلمة بعضاً ليسهئهم بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوئ الأعمال ورديء الخلال وغث الخصال فيؤديهم إلى مهلك الأوجاع والأوجال^(٢).

(١) «التحرير والتنوير» (ج٨، ص: ٧٣-٧٤).

(٢) «نظم الدرر» (ج٧، ص: ٢٧٠-٢٧١).

قال تعالى: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النمل: ٩٠).

قال القرطبي: هل تجزون إلا جزاء أعمالكم.

ومقتضى الظاهر أن يقال: هل يجزون إلا ما كانوا يعملون، فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم، وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم، وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة^(١).

﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النمل: ٩٠).

وهو مشهد مفزع وهم يكبون في النار على وجوههم، ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ! ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

فقد تنكبوا الهدى وأشاحوا عنه بوجوههم، فهم يجزون به كِبًا لهذه الوجوه في النار، وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار^(٢).

(١) «التحرير والتوير» (ج٢، ص: ٥٣).

(٢) سيد قطب: «في ظلال القرآن» (ج٥، ص: ٢٦٦٩).

قال تعالى: ﴿ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (سورة فاطر: ٤٣).

﴿ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله.

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله.

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

قال رسول الله ﷺ: «إياك ومكر السيء فإنه لا يحق المكر السيء إلا بأهله ولهم من الله طالب».

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسلهم ومخالفتهم أمر الله عز وجل.

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي: لا تغيير ولا تبديل بل هي جارية كذلك في كل مكذب.

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ (سورة الرعد: ١١)، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد^(١).

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ولا ينزل المكر السيء إلا بأهله، يعني: بالذين يكرونه وإنما عنى أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكروه هؤلاء المشركون إلا بهم^(٢).

(١) «تفسير ابن كثير».

(٢) «تفسير الطبري» (جـ: ١٠، ص: ١٤٦).

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي: لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك وقيل: هذا إشارة إلى قتلهم بيد.

وعن ابن عباس أن كعباً قال له: إني أجد في التوراة من حفر لأخيه حفرةً وقع فيها فقال ابن عباس: فإني أوجدك في القرآن ذلك قال: وأين؟ قال: فاقراً: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ .

وفي المثل العربي: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً.

وقال بعض الحكماء:

يا أيها الظالم في فعله ■■■ والظلم مردود على من ظلم
إلى متى وحتى متى ■■■ تحصى المصائب وتنس النعم^(١)

ولهذا قيل في المثل: وما ظالم إلا سيلى بظالم.

وقال الشاعر:

لكل شيء آفة من جنسه ■■■ حتى الحديد سطا عليه المبردُ

ومن كلام عامة أهل تونس: يا حافر حفرة السوء ما تحفر إلا قياسك.

فيكون موقع قوله: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله ﷺ مكرهم ويحقيق ضرر مكرهم بهم.

وقال: المعنى أنه لا تقع الكرامة في موقع العقاب ولا يترك عقاب الجاني، وفي هذا المعنى قول الحكماء: ما بالطبع لا يتخلف ولا يختلف^(٢).

(١) «تفسير القرطبي» (ج٨، ص: ٥٥٤١).

(٢) «التحرير والتنوير» (ج٢٢، ص: ٢٣٥).

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ﴿١﴾ فما يصيب مكرهم السيء أحداً إلا أنفسهم وهو يحيط بهم ويحقيق ويحبط أعمالهم، وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم وهو معروف لهم، وإلا أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحدد ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ﴿٢﴾.

(١) «في ظلال القرآن» (ج٥، ص: ٢٩٤٩).

قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿ (سورة

هود: ١٠١-١٠٢).

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١).

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِهَلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ (سورة الكهف: ٥٩).

﴿ فَفُتِّعْ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الانعام: ٤٥).

وقال تعالى في شأن أصحاب السبت: ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (سورة الاعراف: ١٦٥).

فإن الله لا يظلم الناس شيئاً في دنياهم، وإنما يؤاخذهم بظلمهم ولا يظلمهم في الآخرة وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧٦) وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ ﴿ (سورة الزخرف: ٧٦-٧٧).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا، فجزوا بذلك جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد (٢).

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (ج٤، ص: ١٣٥).

يقول سيد قطب: كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ظالمين غير مظلومين^(١).

﴿ احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿﴾ (سورة الصافات: ٢٢-٢٤).

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿﴾ (سورة الكهف: ٢٩).

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿﴾ (سورة الاعراف: ١٨٢-١٨٣).

قال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿﴾ (سورة الانفال: ٣٠).

قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ بَعْدَ لِقَايَةِ الظَّالِمِينَ ﴿﴾ (سورة هود: ٤٤).

أي: هلاكاً وفساداً لهم وبعداً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية^(٢).

قال سيد قطب: بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا، وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى^(٣).

(١) «في ظلال القرآن» (ج٥، ص: ٣٢٠-٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (ج٢، ص: ٤٥٧).

(٣) «في ظلال القرآن» (ج٤، ص: ١٨٧٩).

قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف: ٤٩).

وهذا الكمال عدل، والنفي هنا لإثبات كمال الضد، فحكم الله بين عباده يوم القيامة ووزنه لأعمالهم لا جور فيه.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم.

وعن عبد الله بن أنيس قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - عراة عراة عراة بهمأه قلت: وما بهمأه؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف وإنما نأتي الله عز وجل حفاة عراة عراة بهمأه؟ قال: «الحسنات والسيئات»^(١).

وقال عثمان بن عفان: قال رسول الله ﷺ: «إن الجماء ليققص لها من القرناء يوم القيامة»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أحمد «تفسير ابن كثير» (ج٣، ص: ٩٠).

وقال عزَّ وجلَّ على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة هود: ٥٦).

فقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مثل قول رسول الله ﷺ: «عدلٌ في قضاؤك».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (سورة النساء: ٤٠).

يخبر الله تعالى: أنه لا يظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة بل يوفيهما له ويضاعفها له إن كانت حسنة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فيقول الله عزَّ وجلَّ: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار، وفي لفظ: «ادنى ادنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً»، ثم يقول أبو سعيد اقرأوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية^(١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ (سورة يونس: ٤٤).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْرَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة يس: ٥٤).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٨١). ومن تمام عدله أنه لا يحاسب الناس إلا بعد قيام الحجة عليهم، فالتكليف مُتَّفٍ إذا لم تبلغهم الدعوة بمجيء الرسول ﷺ.

(١) رواه البخاري ومسلم / «تفسير ابن كثير» (ج١، ص: ٤٩٧).

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٣١). فمع ثبوت الظلم لهم إلا أن الله لا يحاسبهم، فأهلها غافلون لم تبلغهم الدعوة فالتكليف هنا مُتَّفِئ.

قال مالك بن دينار: مكتوب في التوراة: كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، فُتَّب إلى مولاك من قريب، فوالله ما ظلمك من جعلك حسيب نفسك.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول العبد يوم القيامة: يا رب ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أجز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنتطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكُنْ وسحقاً فعنكنُ كنت اناضل،^(١).

وقد انفرد الله عز وجل بالحكم كما انفرد سبحانه بالوحدانية قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (سورة المائدة: ١).

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ (سورة الممتحنة: ١٠).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٥٠).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة القصص: ٧٠).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة القصص: ٨٨).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَاَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (سورة يوسف: ٦٧).

وقال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة هود: ٤٥).

وقال عز وجلّ على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة الاعراف: ٨٧).

وقال عز من قائل: ﴿ ... فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٨٠).

obeikandi.com

وأخيراً ..

فما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان.
والنقص في أصل الطبيعة كامن ■■■ فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولاً!!

وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يسأل الله لي غفران الذنوب، وتقبل
صالح الأعمال، وأن يرزقني الشهادة في سبيله، ومرافقة نبيه محمد ﷺ في أعلى
جنات الخلد.

ولمن أراد أن يرسلني لمعرفة رأيه في الكتاب؛ فرحم الله امرءاً أهدي إليّ عيوبي:

- جمهورية مصر العربية، محافظة البحيرة - مركز إيتاي البارود - عزبة الحكر -
د/ رجب محمود إبراهيم بخيت.

- وعبر الهاتف: ٤٥/٤٣٣٩٥٩ .

- وعبر البريد الإلكتروني:

ragab mahmod@hotmail.com

وَأَلْحِقْهُم بِمَا أَنزَلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ لِيُحْمِلَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ

الفقير إلى عفوه

رجب محمود إبراهيم بخيت